﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكر اللّه صفاتِ المؤمنينَ ولم يَذكر العلمَ وأهلَه في شيء؛ ذَكره في هذه الآية، فَقَرَنَ شهادتَهم بشهادتِهِ سبحانَه، وجَمع أولي العلم والملائكةَ، وجعلَهم شهداءَ اللّه في الأرضِ على وحدانيّةِ اللّه؛ فبيّنَ أنَّ مكانَةَ أهلِ العلمِ أسمى من كلّ أصنافِ الخير المذكورة في الآية السَّابِقَةِ، وأنّ طلبَ العِلمِ أسمى أصولِ صفاتِ أهلِ الإيمانِ؛ لأنّ أهلَ العلمِ هم من يُدافعُ عن التّوحيدِ ويُقدّمُ الأدلّة عليه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِدَ﴾: الشّهادة: حضورٌ وعلْمٌ وإعلامٌ، فالحضور يَلزم منه علمٌ يترتَّب عليه إعلامٌ، ويترتّب على الإعلام حكمٌ. والمَشْهَدُ: مَجْمعُ النّاسِ، والجمعُ مَشاهدُ، والشَّهَادَةُ: خَبَرٌ قَاطِعٌ، والمُشاهَدةُ: المُعايَنةُ، وقَوْمٌ شُهُودٌ، أَي: حُضُورٌ[2].

ومعنى شهد في الآية: أعْلَمَ، أو قَضَى، أو حَكَمَ، أو بَيّنَ، أو شهد بإظهارِ صُنعِه[3].

2) ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾: الْقَافُ وَالسِّينُ وَالطَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ وَالْبِنَاءُ وَاحِدٌ. فَالْقِسْطُ: الْعَدْلُ. وَيُقَالُ مِنْهُ أَقْسَطَ يُقْسِطُ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: 42، الحجرات: 9، الممتحنة: 8]، وَالْقَسْطُ بِفَتْحِ الْقَافِ: الْجَوْرُ. وَالْقُسُوطُ: الْعُدُولُ عَنِ الْحَقِّ، يُقَالُ قَسَطَ، إِذَا جَارَ، يَقْسِطُ قَسْطًا. وَالْقَسَطُ: اعْوِجَاجٌ فِي الرِّجْلَيْنِ، وَهُوَ خِلَافُ الْفَحَجِ. والقِسْطُ، بكسر القاف، والإِقْساطُ: العدلُ في القِسمة والحُكم، والفعلُ منهما أَقسطَ بالألف، تقول: أَقسَطْتُ بينهم وإليهم، وتَقسَّطُوا بينهم الشيءَ: اقتسَموه بالتّسوية، فكلُّ مقدارٍ قِسطٌ في كلِّ شيءٍ، يُقال: أَقْسَطَ، أَي عَدَلَ، فهو مُقْسِطٌ، وَفِي أَسمائه تعالى الحُسنى المُقْسِطُ، وهو العادِلُ[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/168، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/172.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/268، والراغب، تفسير الراغب: 2/464.

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (قسط).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

شهِد اللّٰه وبيَّن وأَعلمَ تعالى عبادَه انفرادَه بالوحدانيّة، وأنّه هو الإله المعبود بحقٍّ دون سِواه، وذلك بما أقام من الآيات الشرعيّةِ والكونيّة الدّالّة على أُلوهيَّته، وشهِد على ذلك الملائكةُ بالإقرار بها، وشهِد أهلُ العلم على ذلك ببيانهم للتّوحيد والإيمان به ودعوتِهم إليه وإقامةِ الحُجَّة عليه، فشهِدوا على أعظمِ مشهودٍ به، وهو توحيدُ اللّٰه وقيامُه تعالى بالعدل في خلْقه وشرعه، لا إله إلا هو العزيز الذي لا يُغالبُه أحدٌ، ولا يمتنع عليه شيء أراده، الحكيمُ في خلْقه وتدبيرِه وتشريعِه[1].

ويُذكَرُ أنَّ سبب نزولِ الآية ما قاله محمد بن السَّائب الكَلْبيُّ: أنّه لمّا ظهر رسولُ اللّٰه ﷺ بالمدينة قدم عليه حَبْرَانِ من أحبار أهلِ الشّام، فلمّا أبصرا المدينةَ قال أحدُهما لصاحبِه: ما أشبهَ هذه المدينةَ بصفةِ مدينة النبيّ ﷺ الذي يَخرج في آخر الزّمان، فلمّا دخلا على النبيّ ﷺ عَرفاه بالصِّفة والنَّعت، فقالا: أنت محمدٌ؟ قال: نعم، قالا: وأنت أحمدُ؟ قال: نعم، قالا: إنّا نسألك عن شهادة فإنْ أنت أخبرتَنا بها آمنّا بك وصدّقْناك، فقال لهما رسولُ اللّٰه ﷺ: سَلاني، قَالا: أخبرْنا مَنْ أعظَمُ شهادَةً في كتابِ اللّٰه؟ فأنزلَ اللّٰهُ على نبيّه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فأسلم الرّجلان وصدَّقا رسولَ اللّٰه[2] ﷺ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تناسُبُ الآية مع مطلَعِ السّورةِ وما بعدها:

التّوحيد هو محورُ سورة آل عمران

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ استئنافٌ وتمهيد لقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ فالشهادةُ هي أساسُ الإسلام، وإعلانُ هذا التّوحيد دينًا خالصًا للّٰه سبحانه، وفيه تعريض بالمشركين والنّصارى واليهود، وجميعِ الذين يَدينون بالتّوحيد، وإنْ تفاوَتوا في مراتب الإشراك،

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير 1/173، جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 52.

(2) السّمرقندي، بحر العلوم: 1/200، وابن الجوزي، زاد المسير: 1/361، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/41، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/124 - 126، وابن عادل، اللباب: 1/1005، والآلوسي، روح المعاني: 3/104.

وهذه الآية مرتبطةٌ بمطلع السورة؛ لأنّه يؤكِّد ما افتُتحتْ به السّورة من قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: 2][1].

سرُّ استعمالِ ﴿شَهِدَ﴾ مَجازًا لُغويًا:

تعدُّد الاحتمالات لمعنى الشَّهادة راجعٌ لقوّةِ الاستعمالِ السِّياقيِّ والمعنى المجازيِّ

حقيقةُ الشّهادة خبرٌ يُصدَّق به خَبَرُ مُخْبِرٍ وقد يُكذَّب به خبرٌ آخر، فشأنُه أن يكون للتّصديق والتّكذيب في الحقوق، فلذلك أُطلقت الشّهادة مجازًا على الخبر الذي لا ينبغي أن يُشكّ فيه؛ وذلك على سبيل المجاز المرسَل بعلاقة التّلازُم، فشهادةُ اللَّه في الآية تحقيقُه وحدانيّتَه بالدّلائل التي نَصَبها على ذلك، وشهادةُ الملائكة تحقيقُهم ذلك فيما بينهم، وتبليغُ بعضِهم ذلك إلى الرّسل، وشهادةُ أُولي العلم تحقيقُهم ذلك بالحُجج والأدلّة، فإطلاقُ الشّهادة على هذه الأخبار مجازٌ بعلاقة اللّزوم، أو: تشبيهُ الإخبارِ بالإخبار، أو أنّه تعالى شبّه ذلكَ في البيان والكَشف بشهادة الشّاهدِ[2].

وكلُّ واحد من الأمور المتقدمة يُسمّى شهادة، على نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: 56] ومعلوم أنّ الصّلاة من اللّه غيرُ الصّلاة من الملائكة، ومن الملائكة غيرُ الصّلاة من النّاس، مع أنّه قد جمعهم في اللّفظ[3].

ويُمكن أن تكون شهادة اللّه بمعنى الدّلالةِ ونَصْبِ الأدلّة، وشهادةُ الملائكة وأُولي العلم بمعنى الإقرار، أو بمعنى إقرار الملائكة واحتجاج أُولي العلم، وفيه تَنْبيهٌ على استعمال شهِد في مَعانٍ مجازيّة، أو على استعمال شهِد في مَجاز أَعمَّ هو الإظهارُ، حتى يكون نَصْبُ الأدلّة والإقرارُ والاحتجاجُ من أفراد ذلك العامّ، بِناء على عموم المَجاز[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/168 - 169.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.

ويمكن أنْ يكون شهِد بمعنى بيَّنَ وأقام الأدلّة، شُبّه إقامة الأدلّة على وحدانيّته، من إيجاد المخلوقات ونَصْبِ الأدلّة العقليّة، بشهادة الشاهد بتصديق الدَّعوى في البيان والكشف على طريق الاستعارة التَّبَعِيّة[1].

سِرُّ عَطْفِ الملائكةِ وأولي العِلْمِ في الشَّهادةِ على لفظِ الجلالةِ:

الشَّهادةُ قائمةٌ على أصلِ العلمِ، مع تفاوت العالمين بمضمون الشَّهادة

عُطفتْ شهادة الملائكةِ وأولي العلم على شهادته تعالى تعظيمًا لشهادتِهما، فإنَّ اشتراكهما في لفظٍ واحدٍ وهو ﴿شَهِدَ﴾ يُعطيهما جلالًا وتعظيمًا، ومشاركتُهما لله تعالى في الشهادة من حيثُ عُطِفا عليه لصِحّة نِسبةِ الإعلام، أو صِحّةِ نِسبةِ الإظهارِ والبيان، وإنِ اختلفتْ كيفيّةُ الإظهار والبيان من حيث إنّ إظهارَه تعالى بخلق الدلائل، وإظهارَ الملائكة بتقريرها للرُّسُل، والرُّسُلِ لأُولي العلم[2]، وتضمّنتْ شهادة الله على وحدانيّته قدرتَه في خلقه، على سبيل التّحدّي والإعجاز لمن ادَّعى الألوهيّة، أو ادَّعى شريكًا لله في خلقه ومُلكه.

دلالةُ حذف الخبر:

تكريم الله لملائكته وأُولي العلم إذْ جَمع شهادتَهم إلى شهادته على وحدانيّته سبحانَه

على إعراب ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ و﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ مبتدأً، فإنَّ الخبرَ محذوفٌ لدلالةِ الكلامِ عليه؛ والمعنى: والملائكة وأُولو العلم يشهدون بذلك، أو شهداء[3]، وفي هذا الإعراب تكريمٌ للملائكة وأُولي العلم لتحقيق المكانة العالية عند الله التي تَضمَّنَها اتّحادُ شهادتهما مع شهادة الله تعالى، فكانت شهادتُهما كشهادة الواحد مناسبةً للتّوحيد، ثم إنّ فيها دلالةَ التّبعيّةِ والعبوديّةِ له سبحانَه، فهو موافقٌ في المعنى في إعراب اللَّفظين معطوفين على لفظ الجلالةِ.

توجيه المخصوصِ بالذِّكر:

خصَّتِ الآية الملائكةَ في السَّماءِ، وأولي العلمِ في الأرضِ بالذِّكر من بين سائرِ العبادِ؛ لبيانِ أن شهادةَ التَّوحيدِ إنَّما تصدُر عمّن

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/168، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/16.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/60.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17.

يُعتدُّ به مِن خلقه ممّن أَطلعَهم على ما لم يُطلع عليه الإنسانَ من المَلَكِ والمَلَكُوت، ولا شاغلَ لهم من شهوة ولا حظٍّ ولا فُتور، والملائكة العبادُ المقرَّبون الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾[1]، ثمّ عطف عليهم أُولي العلم، فهم شُهداءُ الله في الأرض، وهم المخوَّلون بالدَّعوةِ إلى عقيدةِ التَّوحيدِ على وجهِها الحقِّ، وسواهم تَبَعٌ لهم.

أولو العلمِ هم شُهداءِ الله في الأرضِ، وهم أصلُ الأمرِ ومنتهاه

سرُّ تقديمِ الملائكةِ على أُولي العلم:

قدَّمتِ الآيةُ شهادةَ الملائكةِ على شهادةِ أُولي العلم، مع أنّ شهادة أُولي العلم تقتضي البحثَ والاكتشاف والمثابَرة، ثمّ الإقرار، بَيْنَما شهادة الملائكة إقرارٌ فحَسْبُ، وسرُّ ذلك أنّه قدَّم الخاصَّ على العامِّ، والسّابقَ في العلم على اللّاحقَ فيه، ولأنَّ الملائكةَ هم الملأُ الأعلى، فعِلْمُهم كلُّه ضروريٌّ، بخلاف البشر فعلمُهم منه ما هو ضروريٌّ ومنه ما هو كسبيٌّ[2].

شهادةُ الملائكة تامّة وعلمُهم بشواهد الله أوسعُ، وفضلُهم في إيصال الرّسالات أكبر

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾:

أوّلًا: أوجُه الإعراب في قوله: ﴿قَآئِمًۢا﴾:

في إعراب قولِه تعالى: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أوجهٌ:

الأوَّلُ: حالٌ من لفظ الجلالةِ، والتَّقديرُ: شَهِدَ الله قائمًا بالقسطِ، أو من الضَّمير ﴿هُوَ﴾، والتَّقدير: لا إلهَ إلّا هو قائمًا بالقسط، أو من ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: حالَ كونِ كلِّ واحدٍ منهم قائمًا بالقسطِ في أداء هذه الشَّهادة.

الثَّاني: صفة المنفيّ، كأنّه قيل: لا إلهَ قائمًا بالقسط إلا هو[3]، وفيه معنى الاختصاصِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/43.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/60.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/169.

الثَّالث: أن يكون نُصِبَ على المدح، أو على قطع الصّفة، والأصل: شَهِدَ اللّهُ القائمُ بالقسط[1]؛ فالشّهادة: قيامٌ بالقسط، والشّاهد بها قائمٌ بالقسط، ومعنى كونِه قائمًا بالقسطِ: قائمًا بالعدل في التّقسيم، يُجريه على سُنَنِ الاستقامة، ومُقيمًا للعدل فيما يَقسم من الأرزاق والآجال[2].

الإعـــــــرابُ الصَّحيح هو التَّابعُ للمعنى السَّليم وإن تعدَّدَ

وهذه الأعاريب الثَّلاثةُ تلتقي في صحَّةِ المعنى، فالحاليّة واضحةٌ من حيث إنَّ الشَّهادةَ بوحدانيَّةِ اللّه لا تكون إلَّا في هذه الحال، وكونُ ﴿قَآئِمًۢا﴾ صفةً فهي كذلك جليَّةٌ، وأمَّا النصبُ على المدح، فمن اتَّصف بهذه الصِّفة، وكانت حاله فالواجبُ فيه المَدْحُ والحَمْدُ.

ثانيًا: سرُّ إفرادِ لفظِ القيام في قوله: ﴿قَآئِمًۢا﴾ دون جمعِه:

أُفردَ لفظُ: ﴿قَآئِمًۢا﴾ ولم يُجمع فيُقال: (قائمين)؛ ليُفهمَ أنّه حالُ كلٍّ من المذكورين منفردًا، وليس حالَ المجموع بقيد الجمع، أو حالًا من الاسم الشريف، فيكون قد أُفرد إشارةً إلى أنّه ما وحّد اللّه سبحانَه وتعالى حقَّ توحيدِه غيره، لأنّه لا يُحيط به أحدٌ علمًا، وإنّما جاز إفراده بها لعدم اللَّبْس؛ أي تَفرَّدَ قائمًا، أو أُفرد القيامُ فاندرج مَنْ ذُكر مِن الملائكة وأُولي العلم في هذا القيام إفهامًا، كما اندرجوا في الشّهادة إفصاحًا[3].

ثالثًا: نكتةُ تأخيرِ قوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾:

علوّ رتبة الملائكة وأُولي العلم عند الله تعالى

تأخَّر ذكرُ ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ عن المعطوفَيْن، وهما الملائكةُ وأُولو العلم؛ للدّلالة على عُلوّ رتبتِهما عند اللّه تعالى، والمسارَعةِ إلى إقامة شهودِ التّوحيد اعتناءً بشأنه، ورفعًا لمحلِّه[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/343، 344، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/169، 170، والسمين، الدر المصون: 3/75، 80.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/127 - 128.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 2/43، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 9/2.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17.

رابعًا: الاحتِراس في قوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾:

لمّا كانت الشّهادةُ محتملةً أن تكونَ على غَيْرِ وَجْهِ العَدلِ؛ نفى ذلك واحترَسَ بقولِه: ﴿قَآئِمًۢا﴾، وأُفرِدَ ليُفهمَ أنّه حالُ كلٍّ من المذكورين[1].

نكتةُ استعمال لفظِ: ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ دون غيرِه من الألفاظ:

يُطلق القِسط والقِسطاس على الميزان؛ لأنّه آلةُ للعَدل في التّقسيم، قال تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ﴾ [الإسراء: 35]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47]، وقد أقام اللّه القِسط في تكوين العَوالم على نُظُمها، وهذا ما يُطلق عليه اليوم بالميزان الكَونيّ، وصُورُه ممّا ذَكره العلماء لا تُعدُّ ولا تُحصى، وشواهدُه في القرآن الكريم واضحةٌ، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: 7]؛ أي وضع الميزان في تقدير بقاءِ الأنواع وإيداعِ أسبابِ المُدافَعة في نفوس الموجودات[2].

استعمالُ القسطِ بدلَ العدلِ لدلالته العلمية في تكوين العَوالم

وقد ناسب لفظُ ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ دون (العَدل) لأنّ العَدل عامّ، ويكون في الغالب مرتبطًا بشؤون حياة الناس، أمّا القِسط فهو واقعٌ في تقسيم ما تحتاجه المخلوقات كلُّها لتستمرَّ على ديمومتها؛ من أصغر شيء إلى أكبر شيء، فهو القَيُّومُ القائم بالقِسط عليها جميعًا[3]، وهذا معنى ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾، فلو لم يكنْ سبحانَه كذلك لاستحالَ وجودُ الكونِ، وهؤلاء العلماءُ الذين يكتشفون هذا العلمَ الكونيَّ هم شهداءُ الأرض على عظيم هذا الخَلق ووحدانيّة الخالقِ سبحانَه.

استعمالُ القسطِ بدلَ المساواة لدلالته على إعطاءِ المخلوقاتِ حقَّها الأنسب

القِسط هو التقسيم بحسب ما تقتضيه الحاجةُ في خلق الكون، وهو معنى قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: 49]، وقولِه تعالى ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾ [الحجر: 19]، فالقِسط هو مراعاة

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/43.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.
(3) محمد باسل الطّائي، أوهام الإلحاد العلمي:. 185 - 187.

حاجاتِ الكون وأحواله بحسب ما قدّر لها سبحانَه أن تستقيم تلك المخلوقاتُ في انسجام وتوافُقٍ، فالتّقسيم بالقِسط إعطاءُ كلِّ خَلقٍ حقَّه مكانًا وزمانًا ومِقدارًا ودَيْمُومة، بحيث تتوافَقُ مفرداتُ الكون كلُّها.

أمّا المساواة فهي التّقسيم بالتّساوي، وليس على ما تقتضيه الحاجةُ والضرورة والأمثليّة في الخلق والكون والحياة.

أوجهُ تكرار قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في الآية:

لبناءِ كلمة التوحيدِ الثّانيةِ على الأولى، توكيدًا وتحقيقًا واعتناءً

تكرَّر كلمةُ الإخلاص ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بهذه الألفاظِ من مُفْتَتَح السّورة إلى هذه الآية أربعَ مرّات: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: 2]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: 6]، ثمّ في هذه الآية مرّتين، فجاء تكرار عمومًا؛ لبيان أنّ صِفاتِ تنزيهِ اللّهِ أشرفُ من صفاتِ تمجيدِه؛ إذ كان عامَّةُ صفاتِ التَّمجيدِ في ألفاظها مشارِكةً لأوصاف النّاس، يصِحُّ وصفُ العبادِ بها، ولأجْلِ ذلك فمعظم ما ورد من صفاته على لفظِ النّفي، نحو: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255]، ثمّ إنّ أبلغ ما يُوصف به من التّنزيه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وتكريرُها هنا لأوجهٍ:

أوّلًا: لكونِ الجملةِ الثّانيةِ قطعًا للحكم؛ إذ قد يوصف بهما المخلوقُ.

ثانيًا: للتّأكيد ومَزيد الاعتناء بمعرفة أدلّةِ التّوحيدِ والحكم به بعد إقامةِ الحُجّة.

ثالثًا: ليُبنى عليها قولُه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فيُعلم أنّه الموصوفُ بهما.

رابعًا: لأنّ الثّانية في مرتبة القِسط الفِعليّ والأولى في مرتبة الشّهادةِ العلميّة؛ فاستوفَتِ الجملتان العلمَ والفعلَ، أي: أنّ الأولى جرت مَجرى الشّهادة، والثانيَة جرت مَجرى الحكم بصِحّة ما شهِد به الشّهود، وفي ذلك حثٌّ العباد على تكريرها.

خامسًا: أنّ الغرض من الإعادة أمرُ العباد بذكر هذه الكلمة ثانيًا على وَفْق تلك الشهادات الأُولى[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/170 - 171، والراغب، تفسير الراغب: 2/466 - 467، والكرماني، أسرار التّكرار في القرآن الكريم، ص: 88، والبقاعي، نظم الدّرر: 2/43، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.

نكتةُ الحصرِ بالضمير في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا بالاسم الظّاهر:

قال تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فأعاد بالضّمير ليكون الشّاهدُ والمشهودُ له واحدًا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فأعاد الضّمير ﴿هُوَ﴾ لمعنى الوحدانيّة في الشّهادة[1].

بلاغةُ قَرْنِ وصفِ العزيز بالحكيمِ وتقديمِه عليه:

الإشـــارةُ إلى كـمـالِ الـقـدرةِ والـعِـلـمِ في سياقِ الانتصارِ للتَّوحيدِ

وحدانيَّتُه وقِيامه بالقِسط لا يَتِمُّ إلّا إذا كان عزيزًا حكيمًا، فهما الدّليلُ على ذلك؛ إذْ لا يَصِحُّ تَفَرُّدُ الإلهِ ولا قِيامُه بالقِسط دون الوصف بالعِزَّة الكاملةِ والحكمة الشّاملة، فالعزيزُ إشارة إلى كمال القُدرةِ، والحكيمُ إشارة إلى كمال العِلم، ولا تَتِمُّ القُدرة إلّا بالتَّفرُّد والاستقلال، ولا العدالةُ إلّا بالاطّلاع على المصالح والأحوال[2].

وهما صفتان مقرِّرتان لما وَصَف به ذاتَه من الوحدانيّة والعدل، فهو العزيزُ الذي لا يُغَالَبُ، الحكيمُ الذي لا يَجور في أفعاله، ولمَّا كانت الآيات كلُّها في الإيقاع بالكافرين قدَّم الوصفَ الملائم لذلك[3].

فنُّ التَّصديرِ:

في الفاصلةِ فنُّ التَّصديرِ، فمَجيءُ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ بعد قوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ ردٌّ إلى الوحدانيّة التي تقتضي العِزّة، وردَّ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ إلى العدل الذي هو القِسْط[4]، وهذا تناسُبٌ بين التّهليل والقِسْط من جِهةٍ و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ من جِهة أخرى.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/42.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/127 - 128، والبقاعي، نظم الدّرر: 2/44.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 1/344، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/65، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/474.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»